

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ
وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ٩٧ ﴾

« جعل » تعني بيّن ووضّح ، فقال : إن الكعبة محرمة ولها كرامة تستحق من المؤمن أن يأمن فيها . أو « جعل » تعني إيجاد صفات للأشياء بعد أن تكون ذات المادة موجودة ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٢٠١ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

أى أنه سبحانه تخصص جزءاً من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءاً آخر ليكون أذناً ، وجزءاً ثالثاً ليكون لساناً . والحق هنا يقول : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » . ونعرف أن كل الأسماء للمعنويات مأخوذة من المحصات .

والكعب هو الشيء الناقص الخارج عن حد التساوى . ومثال ذلك الكعب في القدم يكون مرتفعاً . وكذلك الفتاة تطلق عليها : « طفلة » وهي دون البلوغ ، وعند البلوغ وظهور الثديين نقول إنها : « كعاب وكاعب » ، أى أن ثدييها قد صارا مرتفعين ، والكعبة نتوء ، والنتوء ارتفاع ، وهذا الارتفاع هو علامة البيت ، فالبيت هو مساحة من الأرض ، أما الارتفاع فهو يحدد الحجم .

ومثال ذلك عندما نريد حساب مساحة الأرض : نقيس الطول والعرض ، ونضرب الطول في العرض حتى نحسب المساحة . أما إذا كان هناك ارتفاع فهذا يعني الانتقال من المساحة إلى الحجم . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة البقرة)

أى أن سيدنا إبراهيم بعمله إنما أراد أن يصنع للبيت ارتفاعاً وحجباً ، وهذا البناء يدل على مساحة حجم مساحة من الأرض . إذن فالكعبة هي البيت بعد أن صار له ارتفاع . وكلمة « بيت » تعنى المكان الذى أحد للبيتوتة ، فالإنسان يضرب فى الأرض طيلة نهاره وعندما يجب أن يستريح يذهب إلى البيت .

فإن جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كدحهم لأن بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت لله ولكن باختيار خلق الله ، لما الكعبة فهي بيت الله باختيار الله ، وهي قبله لبيوت الله التى قامت باختيار خلق الله .

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » وكلمة « البيت الحرام » تدل على أن له حرمان كثيرة . وجعل الله الكعبة بيتاً حراماً لكل المسلمين قياماً . والقيام هو الوقوف ، والوقوف هو القيام على الأمر . والقائم على أمر ما يحفظ له قوام حياته ووجوده .

وهكذا نفهم أنه سبحانه أراد أن تكون الكعبة هي البيت الحرام ليحفظ على الناس قوام حياتهم ، بالطعام والشراب واستبقاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وميمنة وجهه وتمكين ، ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مائة يشترك فيها المؤمن والكافر ، وتبدأ بوجود الروح فى المادة فتستغل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المضار ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تحصل حياته الدنيا بحياته فى الآخرة ، فلا تنتهى منه الحياة أبداً .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . أى قواماً لحياتهم سواء الحياة الدنيا أو حياة الآخرة ، الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، والحياة التى تبدأ بالآخرة . والحق سبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هكذا يكون الإيمان بالله وصلاً لحياتين : الحياة المادية في الدنيا ، وحياة الآخرة .
وأراد الحق بذلك دفع الأذى وجلب النفع والجاه والسيطرة للمؤمنين ، ونعرف أن
البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١)

(سورة آل عمران)

كذلك نعرف أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أقام القواعد من البيت ، لما
اليت نفسه فقد أتيم من قبل ذلك . ومادام الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَضَعَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة آل عمران)

فمعنى ذلك أن الله لم يحرم الناس من قبل إبراهيم أن يكون لهم بيت . فالناس
معناها البشر من آدم إلى أن تقوم الساعة ، وأقام إبراهيم خليل الرحمن البعد الثالث
وهو رفع القواعد للبيت الحرام . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

أى أن الحق سبحانه وتعالى أظهر مكان البيت لإبراهيم عليه السلام ، ونعرف أن
إبراهيم أشرك ابنه إسماعيل في إقامة القواعد من البيت ، ونعلم أن إسماعيل قد جاء
إلى هذا المكان رضيعاً مع أمه ، وقال إبراهيم بعد أن رفع القواعد متوجهاً إلى ربه
بالدعاء :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد عرف إبراهيم مكان البيت وأنه بوادٍ غير ذي زرع ، لا ماء فيه ولا نبات .
وجاء الحق بهذه الكناية لنعرف أنه لا حياة بدون زرع ، والماء لازم للزرع . وبذلك
يكون إبراهيم عليه السلام قد لى نداء الله بأن يأتى إلى مكان ليس به أى نعمة تفيم
الحياة ، ولا يوجد فيه إلا المتعم ، ولذلك نرى سيدتنا هاجر عليها السلام عندما تتلقى
الأمر من إبراهيم بالسكن مع ابنها في ذلك المكان تناديه : يا إبراهيم إلى من تركتنا ؟ فيقول

لقد دعا إبراهيم عليه السلام بالرزق من الثمرات ، لأن الوادي غير ذي زرع .
ولذلك جعل الحق أئمة الناس نهوى إلى الكعبة وإلى البيت الحرام . يقول
- سبحانه - :

﴿ أُولَئِكَ مَكِّنْ لِّمْ حَرَمًا مِّنْ أَمْنًا يَجْعَلُ الْبَيْتَ مَحَرَّمًا لِّكُلِّ ثَمَرٍ مِّنْ رِّزْقٍ مِّنْ لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٥٧ سورة القصص)

وكلمة « يَجْعَلُ » تدلنا على أن الناس لا تاتي بهذه الثمرات اختياراً إلى البيت الحرام
الذي جعله الله قياماً للحياة من يوجد فيه ، بل يأتون بالثمرات قهراً .

وهناك أناس لهم مزارع كبيرة وسدائق وفيرة الثمار في الطائف وفي غيرها من
البلاد ، وعندما يريد إنسان الشراء من إنتاج مزارعهم يقولون له : إته تخصص لمكة
فإن أردت شراءه فإذهب إلى مكة .

لقد استجاب الحق لدعاء إبراهيم : (فاجعل أئمة من الناس نهوى إليهم) .
وهو نهوى - بكسر الواو - تدل على السقوط من حال . . أى من مكان مرتفع
شاهق . وكان الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقدولاً إليها . ولذلك نجد التكلف
بالحج - المحب له والمتعلق به - تشتاق روحه إلى الحج .

وعلينا أن نفرق بين « نهوى » . . أى يحب الذهاب ، و« نهوى » بكسر الواو أى
يذهب بالاندفاع ، فالإنسان إن سقط من مكان عال لا يستطيع أن يقول : سأتوقف
عند نقطة ما في منتصف مسافة السقوط ، لأن الذى يقع من مكان لا يقدر على أن
يمسك نفسه . ولذلك قال الحق :

﴿ نَجْعَلُ أَفِيدَةً مِّنَ النَّاسِ نَهْوى إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقُهُمْ مِّنْ أَثْمَرَاتِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وهذا دليل على أن الهوى ليس من صنعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأئمة .
والأئمة بيد الله - سبحانه - هو الذى جعلها نهوى ، والكعبة هى البيت الحرام ،
وهى قوام حياة الناس ، وسبحانه القائل :

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالدخول إلى الكعبة آمن حتى ولو كان قتلاً . وكان الرجل يثقي بقتل أبيه في الكعبة فلا يتعرض له ، إذن فقد أعطى الحق لهم من مقومات الحياة الشيء النافع وحجب عن الموجود منهم الضرر .

وأما السيادة والجلاء فقد عرفنا أن قريشاً سادت العرب وكان رجالها سدة وخدماء لبيت الله ، والكل يأتي إليهم فلا أحد يتعرض لقواقلهم الذاهبة إلى الشام أو اليمن . وإلا فمن يتعرض لقواقل قريش فإن قريشاً تستطيع الانتقام منه عندما يأتي إليها . وكان ذلك قمة السيادة . إذن فمقوم الحياة إما أن يأتي بنافع كالرزق ، وإما أن يمنع الضرر ، وذلك بالأمن الذي يصيب كل داخل إليها ، وكذلك بالسيادة التي أخذتها قريش على العرب جميعاً . وأعطى الله المثل لقريش على حمايته للكعبة ، عندما جاء أبرهة ليهدم الكعبة :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾

(سورة الفيل)

ورد سبحانه كبد أصحاب الفيل ؛ لأنهم لهدموا الكعبة لضاعت السيادة من قريش ، ولذلك قال الحق وصفاً لذلك :

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَمَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٢﴾ ﴿لَا يَلْبَثُ قُورَيْشٌ ۝٣﴾

﴿إِلَّا لَنَفِيهِمْ رَحِلَةٌ ۝٤﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ٢٠١ سورة قريش)

جعل الحق أصحاب الفيل كمصف مأكول أي كتبن أو نحوه أكلته الدواب وألقته رؤثاً ، فعل - سبحانه - ذلك حتى تالف قريش وتطمئن إلى أن الكعبة لن تمسها سوء ، وإلى أن رحلات الشتاء والصيف مصونة بحكم حاجة كل القبائل إلى الحج . وقال سبحانه :

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝١﴾ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآسَأَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٢﴾

(سورة قريش)

أى أسيغ عليهم النعمة بالطعام وسلبهم المصرة بالخوف ، وأبقى لهم السيادة والجاه بخدمة الكعبة التى جعلها الله للناس جميعاً قياماً وأماناً ، لأن الذين يذهبون إلى حج البيت يكفر عنهم سيئاتهم ويخرجون من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهذا قيام لحياتهم الأخروية أيضاً .

إذن جعل الله البيت الحرام قياماً لكل ألوان الحياة ، والبيت الحرام مكان كما نعلم . وجعل الحق الشهر الحرام أيضاً قياماً للحياة ، والشهر الحرام هو زمان كما نعلم . والشهر الحرام هو أحد الأشهر الحرم الأربعة : شهر منها فرد أى غير متصل بغيره من الأشهر الحرم وهو رجب . ولذلك يسمى رجب الفرد . وثلاثة سرد أى متتابعة يلى بعضها بمضا ومى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والمراد بالشهر الحرام هو الجنس لكل شهر من الأشهر الحرم .

ونعلم أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى فاعل . والفاعل يحتاج إلى زمن ليفعل فيه الفعل ، وإلى مكان يفعل فيه ، وإلى سبب يدعو إلى الفعل ، وإلى قدرة تبرز هذا الفعل . ولذلك نذكر جميعاً قول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ ﴿٣٤﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾

(سورة الكهف)

فإليك أن نقول : إنى فاعل ذلك غداً إلا بعد أن تنبها بقولك : « إن شاء الله » . ولا يمنعنا هذا أن نخطط لمستقبلنا . فهاهنا قد استعنا بالمشيئة ، فلنا أن نخطط لحياتنا . ونقول : « إن شاء الله » لأن عناصر الفعل : فاعل ، ومفعول يقع عليه الفعل ، وزمان ، ومكان ، وسبب ، وقدرة تبرز الفعل . ولا أحد منا يملك واحداً من هذه العناصر ، فأنت أيها الإنسان لا تملك وجود ذاتك غداً ، ولا تملك وجود المفعول غداً ، ولا تملك الزمان ، ولا تملك المكان ، ولا تملك السبب : لأنه من الجائز أن يتغير ، ولا تملك القدرة على الفعل ، فقد تسلب منك القدرة قبل أن تفعل الفعل .

إذن ، فأنت لا تملك من عناصر الفعل شيئاً . فلا تجازف ونقول : أنا أفعل ذلك غداً . بل أسندها إلى من يملك كل العناصر ، وقل : « إن شاء الله » ، وبذلك لا تكون كاذباً .

وهنا في هذه الآية يوجد عنصران : المكان ، الزمان ، المكان هو البيت الحرام ، الزمان هو الشهر الحرام ، والذي يحدث الفعل فيه نسيه : المقبول فيه ، وهو إما ظرف مكان وإما ظرف زمان . وأراد الحق سبحانه بذلك أن يؤكد ما فيه قيام الناس زماناً ومكاناً ، فلو أنه سبحانه لم يفعل ذلك بالنسبة للزمان وهو الأشهر الحرام ، والمكان وهو الحرم ، لاستمرت الحرب بين قبائل العرب إلى ما لا نهاية . ولذلك أراد بالأشهر الحرم أن يعطى للعقل فرصة للتأمل في أسباب الحرب ، ويعطى كل إنسان من العرب الراحة من القتال . وكان كل عربي في ذلك الزمن يشتم بالاستعداد للقتال اهتمامه بالطعام والشراب ، فكل منهم ترمى على القروسية والقتال والضرب بالرمح والمبارزة بالسيف .

وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لينساح بالدعوة في أرض الله سبحانه معه الكثير من الرجال الذين لم يكونوا في حاجة إلى التدريب على أعمال الحرب ، فقد كان كل الناس تقريباً جاهزين للقتال . وكان الله سبحانه أراد للإسلام أن ينهي الثار بين القبائل ، وأن يستفيد الإسلام من استعداد كل عربي للقتال . واستفاد الإسلام أيضاً من أن أمة العرب كانت - غالباً - متبعية ؛ بيت كل إنسان منهم على ظهر البعير ، يشد رحاله ، وينصب خيمته وينام ؛ لأن الناس إنما ارتبطوا بالأوطان عندما بنوا المنازل ، فمن بقى لنفسه بيتاً في مكان ما فهو يشتاق إلى ما بناه .

وكان الحق قد أعدهم للنسيح بكلمة الله في الأرض فلا يحزن لترك مكان إلى مكان آخر ، بل إن الشخص منهم كان يذهب إلى البلاد ويتوطن فيها ليحصل الوجود الإسلامي . فكان كل واحد منهم نواة الخير للأمم التي انساحوا إليها ، فمن ذهب منهم إلى الشام توطن فيها ولم يصعب عليه فراق الجزيرة . وكذلك من ذهب إلى مصر وغيرها من البلدان .

إذن فقد أراد الحق بحرمة الأشهر الحرم والبيت الحرام أن يرتاح العرب من القتال بدلاً من أن عهلك الحرب الحرث والنسل ، وأراد الحق ذلك قياماً للناس ، واستبقاء للنوع .

وكذلك حرم الله : (الهدى والقلائد) والهدى هو الذي يهتدى للحرم فأكله

الناس هناك ، ذلك لأن الحرم موجود بوادٍ غير نى زرع . والهللى هو البهيمة التى يتطوع بها أى إنسان ويضع حول عنقها قلادة من لىاء وقشر الشجر أو غير ذلك . وعندما يرى الناس القلادة يعرفون أن تلك البهيمة مهداة للحرم فلا يقربها أحد حتى صاحبها وإن قرصه وعضه الجوع ، وفى ذلك قيام للناس .

وتابع الآية : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » ، وه ذلك ، تشير إلى الأمور التى تقدمت كلها . وه لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، أى أنه مدبر لهم ما يحفظ حياتهم فى كل حال من أخطار الحياة ، فقد رتب سبحانه لهم حفظ الأرواح ، وحفظهم من الجوع ، وآمنهم ، وحفظ لهم السيادة ، كل ذلك بتدبيره وهو الحكيم . لقد دبر كل شىء نولاً ، وأتت الأمور على وفق ما دبر من خير ومصلحة ، فإذا كان كل ذلك قد فعله سبحانه وتعالى فلأنه الأعلم والأحكم .

وقد حدث كل ذلك بعلمه وحكمته ، ونؤمن أن ما لا نعرفه قد فعله وصنعه - أيضاً - بهذه الحكمة المطلقة وذلك العلم المطلق . « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم » لقد رتب حياة الناس فى الجزيرة وحول البيت الحرام على الرغم من أنهم قبل الرسالة كانوا يعبدون الأصنام ، ولكنه هداهم بالرسالة الحممدية . ولذلك قال : « اعلّموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » فسبحانه جعل البيت آمناً وأماناً ، وهذا إخبار شرعى لا إخبار كوفى .

والفرق بين الإخبار الكوفى والإخبار الشرعى أن الإخبار الكوفى لا بد أن يحدث لأنه لا دخل للناس به ، أما الإخبار الشرعى فهو أمر يجب أن يقوم الناس بتنفيذه ، فإن أطاع الناس الخبر القادم من الله جعلوا البيت آمناً ، وإن أساءوا جعلوه غير آمن .

وفى زماننا القريب عندما اعتدى شاب يدعى جهيمان على الحرم ، تساءل الناس : كيف يعتدى إنسان على الحرم وقد أراده الله حرماً آمناً ؟ وقلنا : إن أمر الله بجعل البيت حرماً آمناً هو أمر شرعى يتفذه المؤمنون إن أطاعوا ، وإن لم يتفذه فهم غير مؤمنين . والمثال على الأمر الشرعى والكون قوله الحق :

﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

إننا نجد في الحياة خبيثاً يتزوج امرأة طيبة ، ونجد طيباً يتزوج خبيثة . وهذا يثبت لنا أن قوله الحق : « والطيبات للطيبين » هو أمر شرعى بأن تزوج الطيب طيبة مثله ، وهو واجب التنفيذ إن كنا مؤمنين بالنهج ، أما إن خالفنا المنهج فلأننا تزوج الطيب خبيثة والطيبة خبيثاً ، وبذلك يخل التكافؤ في الأسرة ، وتصير حياة المجتمع جميعاً ، ومن أجل أن نحفظ للمجتمع توازنه علينا أن تزوج الطيب للطيبة وأن نترك الخبيثة للخبيث ، حتى لا تكون حياتنا في فتنه . ونبينا سبحانه إلى ضرورة مراعاة أوامره الشرعية فيقول لنا سبحانه :

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾

أى تيقظوا لأحكام الله ، وكونوا طوع ما يريد ، فمن يخالف الله فعليه أن يعرف أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب . ومن كان يطيع الله فليعلم أنه سبحانه غفور رحيم . وجاء سبحانه بصفة من صفات الجلال لتقابل مع صفتين من صفات الجلال ، فصفة : « شديد العقاب » تتقابل مع صفتي : « غفور رحيم » لأن كل الناس ليسوا أنبياء ، وكل الناس ليسوا أشراراً ، لذلك جاء للأخيار بما يناسبهم من المغفرة والرحمة ، وجاء للأشرار بما يناسبهم من شدة العقاب ، وغلبت رحمته ومغفرته غضبه وعقابه ، ونلاحظ ذلك من مجيء صفة واحدة من صفات الجلال : (شديد العقاب) ويقابلها صفتان من صفات الجلال وهما : (غفور رحيم) . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿مَّا عَصَى الرَّسُولَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ

وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

الرسول هو المبعوث من المرسل الحق سبحانه إلينا نحن العباد . والحق سبحانه هو الفاعل الأول ، المطلق الذي لا فاعل يزاحمه . والمفعول الأول بالرسالة هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمفعول الثاني هو نحن . وهناك في النحو المفعول معه ، وهناك أيضا المفعول له ، والمفعول فيه . والمفعول به ، وأيضا يوجد المفعول إليه والمثال على المفعول إليه قوله تعالى :

﴿ تَكَلَّفَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا لَكَ أَمْرَيْنِ قَبْلِكَ قَرْنًا لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة النحل)

وفيه أيضا المفعول منه . والمثال على المفعول منه هو قوله الحق :

﴿ وَاخْتَارُوا مَوْتَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيمْقِشُوا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الاعراف)

و« قومه » هي مفعول منه . لأنه اختار من قومه سبعين رجلا ممن لم يعبدوا العجل ليعتبروا ممن عبد العجل ويسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء .

إن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البلاغ (ما على الرسول إلا البلاغ) ، أما تنفيذ البلاغ فهو دور المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أدوها فلهم الجنة ، وإن لم يؤدوها فعليهم العقاب . وأراد الحق أن يكون البلاغ من رسوله مصحوبا بالأسوة السلوكية منه صلى الله عليه وسلم ، فالرسول يبلغ وينفذ أمامنا ما بلغ به حتى نتبعه ، ولذلك قال الحق :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

وهذا ما ينتقض ادعاء الألوهية لبشر . فلو كان هناك إله رسول لقال الناس : كيف نطيع هذا الرسول وله من الصفات والخصائص ما يختلف عن نحن البشر ؟ إن الرسول لا يستقيم ولا يصح أن يكون إلها لأنه هو الأسوة والقُدوة للمرسل إليهم . إنه يصل ويصوم ويذكر ويحج ويفعل غير ذلك من الأفعال ، ويأمر من أرسل إليهم أن يتبعوه فيما يفعل ، فلو كان إلها لكان المرسل إليهم - وهم البشر - لا يقدرون على أن يفعلوا مثل ما يفعل ، لأنه إله وطبيعته تختلف عن طبيعتهم ولذلك لا يستطيعون

الناس والاعتداء به، فالأسرة لا تنأى إلا إذا كان الرسول من جنس المرسل إليهم . .
 أى يكون بشراً بكل أحوال البشر .
 والحق سبحانه قال :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾

(سورة الإسراء)

﴿ ١٦٤ ﴾

أى أن البشر تسامحوا - جهلاً - بما يمنع الله - سبحانه - أن يرسل لهم رسولاً من غير جنس البشر، ولماذا أرسل لهم رسولاً من جنس البشرى ؟ وهنا يأتى الأمر من الله سبحانه :

﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَخْشَوْنَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا ﴾

(سورة الإسراء)

رَسُولًا ﴿ ١٦٥ ﴾

وهذا يبلغ الحق دمه ضرورة لبلاغ الناس أن الرسول لهم لابد من أن يكون من جنس البشر ، لأن الملائكة لا يخشون مطمئنين في الأرض ، ولو جاء الرسل من الملائكة لقال البشر : لن نستطيع اتباع ما جاء به الملائكة لأنهم لا يصلحون أسوة لنا ؛ لأنهم من جنس آخر غير جنس البشر، ثم إن الملائكة من مخلوق الغيب، فكيف يبعث الله للبشر هذا النبيب ليكون رسولاً ؟ ولو حدث ذلك فلا بد أن يجعله الحق في صورة بشرية .

ففي آية أخرى يقول الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ ﴿ ١٦٦ ﴾ (سورة الأنعام)

إنهم طلبوا أن ينزل الله عليهم ملكاً، ولو استجاب الله لهم ولرسل رسوله ملكاً لتجسد الملك في صورة بشرية، وهم من بعد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون، عندئذ يحق عليهم عذاب الله ويهلكهم . إذن فبهمة الرسول هي البلاغ ولنا فيه الأسوة .

وتتابع الآية : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » كأنه سبحانه وتعالى يحذرنا من أن نأخذ شكل الإيمان دون أن نؤمن حقيقة ، لأن الأمر الشكلى قد يجوز على أجناس البشر أن يتخذوا فيه ، ولكن الله ينظر إلينا بقبوليته ، سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم . وفى هذا القول تحذّر للمنافقين من أنه سبحانه سيحاسبهم ، فإن كتم الإنسان الكفر فى قلبه وأظهر الإيمان الشكلى ، فسوف ينال عقاب الله ، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة المؤمنين أن يحكموا على ظاهر الأمر وأن يتركوا السرائر لله .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحاشى أن نحكم بكفر إنسان أعلن الإيمان ولو نقاشاً . وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم أنه بشر ، وحرف أن البشرية محدودة القدرة . ولذلك قال : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فاعل بعضكم أن يكون الحق بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ليأخذها أو ليركها »^(١) .

هكذا يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نظن فيه قدرة فوق قدرة البشر وعندما قتل صحابى رجلاً أعلن الإيمان قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هلا شقت من بطنه فعلمت ما فى قلبه »^(٢) إذن فتح لنا الظاهر ، أما السرائر فامرأها موكول إلى الله . ولذلك يقول الله : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . ونعلم أن ظاهرة النفاق تعطى للمنافق حقوق المسلم الظاهرة الموقوتة بحياته ورضه ، ولكن الباقى فى الحياة الأخرى طويل ينال فيه جزاء ما أبطن من كفر . والكتمان غير الإخفاء . فكتم الشيء يعنى أن الشيء ظاهر الوجود ولكن صاحبه يكتمه ، أما الإخفاء فهو ما يدور بالخواطر ، ويمكن أن يخفيه الإنسان ، ولكنه مع مرور الوقت لا يستطيع ذلك ، فالشاعر العربى يقول :

ومهما تكن عند امرئ من خفية

وإن خالها ، تخفى على الناس تعلم

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه والحمد

ويقال : يكاد المرعب أن يقول لعلوني .

وما دام الحق يعلم كل ما يبدى البهر وكل ما يكتُمون ، وهو شديد العقاب ، وغفور ورحيم ، ويجزى على الحسنة بعشر أمثالها ، ويجزى على السيئة بمثلها ، فماذا علينا أن نضل ؟ يتينا القول الفصل في أمر الله لرسوله أن يخبرنا :

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُنْ لَكُمْ
لَعْنُكُمْ تُقْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

إذن فالخبث لا يستوى أبداً مع الطيب ، بدليل أن الإنسان منا إذا ما ذهب لشراء سلعة فهو يفرز البضاعة ليختار الطيب ويستعد من الخبيث . وهذه قضية كونية مثلها تماماً مثل عدم تساوي الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور . ويأتى الحق إلى المحصلات ليأخذ منها ما يوضح لنا الأمر المعنوي . ولذلك نجفدنا أن نغتر بكميات الأشياء ومقدارها ، فإن الطيب القليل هو أرق وأعظم وأفضل من الكثير الخبيث . والأمر الطيب قد يرى الإنسان خيره في الدنيا ، ومن المؤكد أن خيره في الآخرة أكثر بكثير مما يتصور أحد ، لأن عمر الآخرة لا نهاية له ، أما عمر الدنيا فهو محدود .

وكثير من الناس عندما يحضرون قسمة ما ، فكل واحد يرغب في أن يأخذ لنفسه النصيب الأكبر ، لأن الإنسان تفر به الكثرة . وهذا الطمع يشيع الخبث في جميع ما يأخذ الطامع ، فاللذي يطمع في حصة من قمح - حل سبيل المثال - تزيد على حقه ، فهو يفسد حياته بهذا الشيء الخبيث . وذلك كخلف الماء الطاهر بماء نجس فتقلب النجاسة حل الماء . إذن فلا يصح أن نحكم على الأشياء بكميتها وقدرها ، ولكن يجب أن نحكم على الأشياء بكونيتها وصفتها وبسرها في الخير .

والثال الذي لا أمل من تكراره هو التلميذ الذي يكدر لثة عشرين عاماً فهو يتخرج إنساناً له مكانة لا تفتن ، أما التلميذ الذي يقضي عشرين عاماً في اللعب واللهو فهو يتلقى وينال مستقبلاً فاقلاً مؤلماً . إذن ، هل كل منا أن يقدر النفعية بدهومتها ، ولا يفتر بكثرة الحبيث .

والثال يتكرر في حياتنا ولا بد أن نضعه أمام أعيننا لترعى الله ولا ينساق كما ينساق كثير من الناس إلى هلاكهم ، فبعض الناس لا يرتضون قسمة الله في موارثهم ، فيعطى بعضهم للذكور ولا يعطى للإناث . أو يقتل من نصيب الإناث . ونقول لمن يفعل ذلك : أنت لا تعلم ماذا تفعل . ولو أن ابنك الذكر يعلم أن يد الله في الأشياء لقال لك : ارحني ولا تزدد ، لأن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿وَابْتَأْزَكِرْ وَأَبْنَؤَزَكِرْ لَا تَقْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لِكُرْتَفَعًا﴾

(من الآية ١٦ سورة النساء)

ولذلك يجب أن يتبه الناس إلى أن قسمة الله هيعدل قسمة ، وإياك أن تظلم ابنك لك أو قريباً بزيادة فوق ما قدره الله له ، لأن هذا عين الظلم . فإن فانت على الموت وهو حي تقول لمن أخذ : احذر ولا تقبل ما هو فوق شرع الله وأعد ما هو فوق حقت . افعل ذلك برجولة الإيمان . وإياك أن تظن أن الذي سيديم السر لاولادك هو هذه الزيادة التي ليس لك حق فيها ، لأنك بهذه الزيادة ستقطع الأرحام وتغرس بذور الكراهية والبغض .

ولو نظرت إلى هذه المسألة وأقيمتها على ما شرعه الله فستجد أن الرزق سيفيض عليك من كل جانب مادمت قد راعيت حق الله في إرادته التي حكم بها لينشأ الاستطراق الأسرى وتظهر العدالة الربانية ، لذلك يجب ألا يجترأ أحد على قسمة الله ، لذلك أقول لكل من يقرأ هذه الكلمات ويفكر في الاجترأ على قسمة الله : تب إلى الله ولا يصح أن تشوه استقامتك الإيمانية . وإياك أن يظن إنسان أنه كاتب يمكنه أن يحتاط لابنائه . فكتبوا ما رأينا أناساً تركهم أهلهم أغنياء وصاروا في عوز وفاقة وفقر ، ورأينا أناساً تركهم أهلهم فقراء ، وأفاض الله عليهم من رزقه ، فسبحانه الغافل :

﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَلَقُوا عَلَيْهِمْ مَا اتَّخَذُوا آلَهُ لِيَخْشَوْا أُولَئِكَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْآلَاءَ بَدَلًا﴾

(سورة النساء)

إذن فعل المؤمن أن يحذر الكثرة إن كان بها شيء خبيث . ولنا العبرة في الحكاية التي حدثت مع أبي جعفر المنصور حينما يبيع للخلافة ، وذهب الناس يهتونه بإمارة المؤمنين ، ودخل عليه سيدنا مقاتل بن سليمان وكان أحد الواعظين .

هنا قال أبو جعفر لنفسه : جاء ليحكر علينا صفو يومنا ، سأبدئه قبل أن يبدأني وقال له : عطفه يا مقاتل . قال مقاتل : أعطك بما رأيت أم بما سمعت ؟

ذلك أن السمع أكثر من الرؤية ، فالرؤية محدودة ومقصورة على ما تدركه العين ، لكن السمع متعدد ، لأن الإنسان قد يسمع أيضاً تجارب غيره من البشر .

قال أبو جعفر : تكلم بما رأيت . قال : يا أمير المؤمنين ، مات عمر بن عبد العزيز وقد ترك أحد عشر ولداً ، وخلف ثمانية عشر ديناراً كفن منها خمسة ، واشتروا له قبراً بأربعة ، ثم وزع الباقي على ورثته . ومات هشام بن عبد الملك ، فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع ثمانين ألف دينار ، غير الضياع والقصور . كان نصيب الزوجات الأربع هو ثلاثمائة وعشرون ألف دينار ، وهذا هو ثمن التركة فقط . والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت بعين هاتين في يوم واحد ولداً من أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرس في سبيل الله ، ولداً من أولاد هشام بن عبد الملك يسأل الناس في الطريق .

إذن فعل كل منا أن يعرف أنه لم يدخل الدنيا بثروة ، وعليه أن يتأدب مع الله ويرعى حق الله ، ولا يتدخل في قسمة الله .

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(سورة المائدة)

هل المسلم - إذن - أن يستحضر كل ملكاته العقلية حتى يحيز الحيث من الطيب ويرفض الشيء الخبيث ؛ لأننا لو تدبرنا الحكم بعقولنا لوصلنا إلى أن حكم الله هو الحكم الحق العادل .

(لعلكم تفلحون) والفلاح - كما نعلم - مأخوذ من أمر محس وهو فلاح الأرض ، فالإنسان يأخذ حبة قمح ويزرعها فتعطيه سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة . والحق سبحانه يسمى لنا كل عمل الآخرة بالفلاح ؛ لأن الكلمة لها وقعها الجميل ، فإذا كانت الأرض ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله بما تحتويه من كل العناصر اللازمة للزروع واللازمة لكل حياة ، هذه الأرض تعطينا لقاء حبة قمح سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟ فائق الله أيها المسلم ولا تتدخل في قسمة الله ، وضع أمامك هذا التشريع الحكيم الذي ورد في الأمر : شركم من ترك عياله بخير وأقبل على الله بشراً .

وعلى الأبناء الذين ابتلوا بهذا أن يراجعوا الأمر بنخوة إيمانية ؛ لأن الأب حينما أحب ابناً له وزاد له في الميراث كان أحق الحب ، وعلى الابن أن يحترم عاطفة الحب ، وأن يجازي الأب عنها ويرحمه ، فيعيد الأمر إلى نصابه ويعطى كل ذي حق حقه حتى لا يتعرض أبوه لعذاب النار الذي سيناله نتيجة تدخله لصالحه في قسمة الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنۡ أَشْيَآءَ
إِنۡ تُبَدَّلَ لَكُمۡ نُسُوكُمْ وَإِنۡ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
ٱلْقُرْءَانُ تُبَدَّلَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ عَفُوۡرٌ

حليمٌ ﴿١٠١﴾

وهذا نهي عن السؤال ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « فزوني ما ترككم فإذا هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » (١) .

ونعرف أن بني إسرائيل شددوا على أنفسهم عندما أخذوا يماطلون في أمر ذبح البقرة ، وتسألوا عن لونها ، وشددوا فشدد الله عليهم . ولو أنهم ذبحوا أي بقرة لكانت مقبولة منهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى جاءت البقرة الموصوفة ملكاً ليقيم ، كان هذا اليتيم ابناً لرجل صالح وكانت له ججلة فأتى بها موضعاً كثير الشجر والمرعى وقال : اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر وعندما سالوا اليتيم على ثمنها باعها لهم بملء جلدتها ذهباً .

وقد شدد بعض الناس في سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبدالله بن حذافة بن قيس السهمي الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أبي ؟

فاجاب رسول الله : أبوك حذافة . ولو فرغنا أن هذا السائل كان ينسب لغير أبيه ألا يكون في ذلك فضيحة لأمه وقد قالت له أمه : ما رأيت أعق منك قط ، أكنيت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على دعوس الناس .

لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس في الأمور التي تؤدي بهم إلى المشقة والتعب وتسيء إليهم وتقبل الحق من رسوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشرعية مثل سؤالهم عن الخمر والأهلة والحيف والشهرا الحرام وغيرها . أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق في شأنها : « عفا الله عنها والله غفور حلیم » .

ذلك أن البعض استمرأ السؤال وكأنه يمتحن النبي صلى الله عليه وسلم . ولذلك جاء الأمر بالآلاتعبد المؤمنين السؤال عما ستره الله عنهم كي لا يفضح عرضهم . « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » فإن نزل القرآن وهو يجمل الإجابة كان بها . وإن لم تكن الإجابة فلا يقولن أحد : إن النبي ليس عنده جواب . أو هي سؤال عن الأشياء التي اقترحوها ادعاء منهم أنها تثبت صدق النبوة فقد حكى الله عنهم :

(١) روى مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ
وَعَنْبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَازَغَةً عَلَيْنَا كِسْفًا
أَوْ تُنَادِيَ بِآلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلْيَنْزِلْ رِسَالًا فَتُؤْمِنَ ﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُتُرٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ
وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرِسَالِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا
بَشَرًا مِثْلَكُمْ ﴾ ﴿

(سورة النساء)

لقد ظهر من هذا القول سوء النية المبينة منهم ، قال الرسول لن يأتي بالآيات ، بل
تأتيه الآيات بالأمر المكلف به ، لأن الرسول لا يختار ما يؤقن به من آيات ، ولكن
الحق هو الذي يرسل الآيات المناسبة .

ولذلك يقول الحق :

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا
كَافِرِينَ ﴾ ﴿١٠٢﴾

والحق لم يرسل هذه الآيات رحمة بمن سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عنها فقد
سأل قوم عن ناقة وعفروها فإبادهم الله . وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة
ونزلت عليهم وتوعدهم الحق بعدها إن لم يؤمنوا . وكانت سنة الله مع خلقه إن
اقتربوا هم آية ولم يصدقوها فإن الحق يهلكهم أو يعذبهم . ويعطي سبحانه أمة محمد
صلى الله عليه وسلم ضيائاً :

﴿ وَمَا كَانَ لَ اللَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنفال)

إذن فالأسئلة التي سألوا عنها لم يجيبهم عنها لأنه سبحانه قد عفا عنها . والعفو - كما نعلم - مأخوذ من عفى الأثر أي أذهب الأثر . وهو الله من مغفرته ورحمته .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَآكَرَهُمْ لَا يَتَفَقَهُونَ ﴾ ﴿١٧٣﴾

وهذه الآية جاءت في السورة التي أحل الله فيها بيعة الأنعام ، وحرم منها ما حرم . فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يستبقى حياته من قوت ، وما يستبقى نوعه بالتزاوج . وإذا كان الحق هو الذي جعل الإنسان خليفة في الأرض فقد أعد له كل هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعد سبحانه خلفه الأرض والسماء والماء والهواء ، وما دخر وتبأ وأوجد في الأرض من اقوات لا تنتهي إلى يوم القيامة .

ولما أن تلتفت إلى غارق مهم بين « الخلق » وبين « الجمل » . فالحلق شيء ، والجمل شيء آخر . والخلق هو إيجاد من عدم ، والجمل هو توجبه مخلوق لله إلى مهمته في الحياة . فخلق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخلق والإيجاد له سبحانه . وعليها نحن الخلق - أن نخصص كل شيء لمهمته في حياته التي أرادها الله ، أي أن نترك « الجمل » لله ولا نتدخل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق التحذير - على سبيل المثال - ليأكل من القافورات وليحس الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة ، وعمل الإنسان - إذن - أن يخصص التحذير لهذه المهمة فلا يحوله إلى غير مهمته كأن يأكله مثلاً ، لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضر بالإنسان الذي أراده الله سيداً مستقلاً في الكون .

وأبلغ سبحانه الناس أنه قد جعل أشياء وحرم أشياء ، وعلى الإنسان أن يرضخ لما
 أحله الله فيقبل عليه ، وأن يرضخ بالابتعاد عما حرم الله . والحائق سبحانه وتعالى
 هو الذي « خلق » وهو الذي « جعل » وهو الغافل :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَهْبَةَ الْغَيْثَ الْحَرَامَ قِيَسًا لِّلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة النمل)

وهو الغافل :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نجعل له أندادا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ
 لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَزَلَّ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ قَاتِرًا يَمُرُّ مِنَ الثَّغَمَاتِ
 فَإِذَا زُلْزِلَتْ فَلَا يَحْمِلُوهَا اللَّهُ أُنْزَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

(سورة البقرة)

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد ، فلا يصح أن نجعل له أندادا ، لأن ذلك
 عبث . وثبت لنا سبحانه أن قضية الفساد في الأرض تنشأ من تعدى الناس إلى
 الجعل المخلوق لله فيحولونه إلى غير ما خلقه الله له .

والخلق في حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيها هي مخصصة
 له . ومثال ذلك : أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن . وتستقبل من صانع
 الصابون قالباً من الصابون ، ثم تقيء بالجبن والصابون إلى المنزل ، فتخبر أهل
 البيت بأن الجبن للأكل والصابون للتسليم ، ويطلع الجميع هذه التوجيهات . لكن
 إن استخدم أحد الصابون للأكل والجبن للتسليم يحدث إفساد في صحة أفراد
 الأسرة . وكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى لنا أبناء من أصلابنا ، فكيف نأخذ أبناء
 من غير أصلابنا لنجعلهم أبناء لنا ؟ إن هذا خطأ في الجعل .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا جَعَلْ أَدَمِيَاءَ كَرِأَبْنَاءَ كَرِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأعراف)

إن الدعى هو في حقيقة أمره من غير صلبك ، وزوجتك ليست أمّاً له ، فكيف تجعله ابناً لك ، وليكن من أن يجلس في حجر امرأة غير أمه ويشب على ذلك وينظر إلى غير محله على أن ذلك حلال ومباح له ، إنه بذلك يفقد التمييز بين الحلال والحرام ، لذلك فالتبني إفساد في العمل .

إن كل فساد ينشأ في الكون حينما نجعل مخلوقاً لله في مهمة غير تلك التي جعلها الله له . والحق سبحانه وتعالى يطلعنا أنه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما بقية ، وما يحفظ نوعه ، فعلينا أن نتبع ما يأمر به الحق من اتباع ما هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام . وإن قال قائل : ولماذا حرم الله بعض الأشياء التي خلقها ؟ ونقول : إن الذي خلقها جعلها لمهمة غير التي يريد الإنسان أن يوجهها له ، ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير .

والإنسان منا إذا ما رأى صورة من مبيشة الحيوانات في الغابة . يتمعجب ، ففضلات حيوان هي غذاء لحيوان آخر . وسم الثعبان هو حامية وعلاج . ونعرف أن الإنسان يستخلص سم الثعبان ليستخرج منه علاجاً لبعض الأمراض ولقتل بعض الجراثيم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَتَزَكَّى اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلْالاً قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۝

أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَتَرُونَ ۝ ﴾

(سورة يونس)

كيف إذن نجعل من أنفسنا مشركين نحلل الحرام ونحرم الحلال ؟ إن الله الذي خلق كل شيء لم يمنحنا الإذن بذلك . فعلينا أن نسلم بأن كل شيء مخلوق لمهمة

فلا يصح أن توجه شيئاً إلى غير مهمته . وتوجيه أشباه إلى غير ما جعلت له أنتج آثاراً ضارة ، ومثال ذلك استخدامنا لمبيدات الحشرات في الحقول ، تلك المبيدات أبادت الضار في نظرنا ، وأبادت النافع أيضاً . وعلى الإنسان - إذن - أن يتنبه جيداً فلا يسلو بين الحرام والحلال ، وأن يتنبه تماماً فلا يتعدى الجعل المخلوق لله . يقول سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾

(سورة الناقة)

والبحيرة هي الناقة التي تُشق أذنها كعلامة على أنها محرمة فلا يتعرض لها أحد ، لا تُرد عن مرضى ، ولا تُرد عن ماء ، ولا يُشرب لبنها ، ولا يُركب ظهرها ، ولا يُجر صوفها ، لأنهم قالوا : نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر . وه السائبة ، وهي الناقة التي يقدمها الرجل إن برىء من مرضه أو قدم من سفره كنذر سائب ، فلا يربطها ، وتأكل كما تريد ، وتشرب ما تريد ، وتنام في أى مكان ، ولا أحد يتعرض لها أبداً ، وقد سميت « سائبة » بمعنى مأخوذ من الماء السائب . ونعرف أن صفة الماء وطبيعته الأساسية هي الاستطراق ، فإن سقط الماء على قمم الجبال فهو يملاً الوديان أولاً ، ثم يصعد إلى الأعلى ، هكذا يكون استطراق الماء عالم يتحكم فيه الإنسان بإقامة السدود والمضخات وشبكات توزيع المياه .

والوصيلة هي الناقة التي تصل أخاها ، فالناقة عندما تحمل وتنضع المولود ، هنا ينظر أصحاب الناقة إلى جنس المولود ، فإن كان ذكراً أكلوه ، أما إن كان المولود أنثى فهي ثم يستبقونها لأنها وعاء إنجاب لتاج جديد ويكفى فعل واحد لإخصاب عشرات الإناث . فإن نتجت الناقة في بطن واحد ذكراً وأنثى فإنهم لا يذبحونها ويقال : « وصلت الأنثى أخاها » فحرمته علينا .

وفي ريفنا المصرى نجد الأطفال يتمنون أن يأتى وليد الجاموسة أو البقرة ذكراً حتى يأكلوا من لحمه وحتى يشربوا من لبن الجاموسة أو البقرة كما يهون . ذلك أن الطفل

ينظر إلى مصلحة الباشرة ، أما الكبار فهم يهتمون دائما أن يكون وليد البهيمة أنثى ، لأن الأنثى وعاء لنتاج جديد .

والد حام : هو الفحل الذي يحصى ظهوره من أن يركب ، ويتركونه لينطلق كما يريد . وهو الذي لقح عشرة أجيال من الإناث ، أو هو الذي نتجت من صلبه عشرة أبطن . وكان من الضوابط لهذه العملية أن يعرفوا أن حفيد هذا الفحل - ابن ابنه - يمكنه أن يلحق .

وكل هذه المسائل : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحمام ، هي من اختراعات أهل الكفر الذين يفترون على الله ، فالحق سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام ليستمتع الإنسان بأكلها وشرب لبنها وتسخيرها إلى ما يفيد.

ومعنى : يفترى الكذب : أى أنه يخلق كذباً ويدعيه لبطراً به على صدق ليخفيه
فالكذب ستر لحقيقة كانت قائمة . والحقيقة القائمة منذ أن خلق الله المخلوق أن هذه
الأنعام جميعها مسخرة لخدمة الإنسان ، وأبلغ سبحانه آدم بمجهته ، وكان من
المفروض أن يبلغ كل جيل الجيل الذى يليه . لكن طول الزمن والغفلة هما السببان
وراء تسيان الناس لبعض الأحكام : لذلك بعث الله الرسل ليذكروا الناس بالمتنجس ،
وليزيلوا الكفر عن وجهى الناس ، فالكافرون أناس سمروا عنجهى الله ، وستروا البلاغ
عن الله ، وهم بذلك يفترى الكذب على الله .

ومثال ذلك قصة دخول الأصنام إلى الكعبة ، فقد سافر رجل اسمه عمرو بن لُحَيٍّ إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنماً يقال له : « هبل » إلى مكة ، وكان هو أول من أدخل الأصنام إلى مكة . وكما فعل عمرو بن لُحَيٍّ فعل غيره بوضع قوانين وقواعد لم يأت بها الله ، كالوصيلة والبحيرة والسائبة والحمام . وكان ذلك اختراعاً على منهج الله وتقليداً لمنهج الحق ، وعلى فرض أنه لا منبج قد وصلهم من الله ، ألم يكن من ضرورة الثقل أن ينظروا في أمر هذه البدع والضلالات ؟

إن الحق سبحانه وتعالى لم يمنح العقل من أن يصل إلى حقيقة كونية سنيمة . ولكن قد يجهل العقل ويتعب بالتجربة الطويلة حتى يصل إلى حقيقة ما . لذلك أراد

سبحانه حماية الناس من شقاء التجارب القاسية فانزل منهجه ليحدد الحرام من الحلال . قال سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُشْرِكُونَ ٢٥٥ ﴾

(سورة التوبة)

ويقول في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ٢٥٦ ﴾

(سورة الفتح)

ولفائل أن يقول : لماذا إذن وجد في العالم أديان أخرى . كاليهودية والنصرانية ، ولماذا إذن هناك ملاحدة مادام الله قد قرر ألا يوجد مع الإسلام دين آخر ؟

ونقول : أنت لم تفهم مراد الآيتين الكريمتين ، إن الحق سبحانه يقول مرة أن الدين سيظهر ولو كره المشركون ، بمعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين ، وأهل ديانات أخرى وسيظهر الإسلام عليهم ، ويحمله الله هو السائد بالحجة والبرهان وشهادة الكافرين والملحدين والوثنيين أنفسهم ، لأن أمور الحياة ستجلبهم ل كل قضايا حياتهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المناهب إلا بأن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هي التي ستخلصهم من مشكلاتهم ، ولجوزهم إلى أفضية تتفق مع الإسلام - مع كفرهم بالإسلام - هو شهادة قوية على أن الإسلام جاء دين الفطرة ، ودين العقل ، وأن الكل سيحتاج إليه نهراً عنه . ومن لم يأخذه ديناً فسيخطر إلى أن يأخذه نظاماً .

وإذا كان الحق سبحانه قد قبل الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها الإيمانية عنها بقوله عز وجل : « وأكثرتهم لا يعقلون » ، فلأنه سبحانه ينهيها إلى أنهم لو تعقلوا الأمر لما جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من المحرمات عليهم .

ولنا أن نتساءل : أ جعلتم هذه الأشياء حراماً تكريماً لها أم زهداً فيها ؟ فإن كان هو الزهد ، فمعنى ذلك أنهم أخرجوها عما خلق الله ، لأن الله خلقها لتأكل لحسها

ونتفع بها . وإن كان هو التكريم ، فهل من التكريم أن يترك الإنسان الحيوان الذي خلقه دون حابة من ذئب ، ودون طعم يعمده له ويتركه يلبغ في أرض الغير ؟ . إن هذا أسلوب يدل على عدم الوفاء للحيوان الذي خلقه الإنسان ، ومثل هذا السلوك لا يستبقى حياة هذا الحيوان ، بل يعرضها للخطر ، لهذا يأبى العقل السوي هذا الزهد وذلك التكريم . فإن كان عمرو بن لُحَيٍّ أو غيره قد جاءوا بأشياء وتقاليد لم يجعلها الله ، فعلينا أن نشكر الحق سبحانه لأنه جاء بالإسلام ليعدل من هذه المسائل .

والمدقق للنظر في آيات القرآن يجدها تمثل برنامجاً معظماً لحياة الإنسان على الأرض ، وكأنها حاسب آلي يضبط إيقاع حركة الإنسان في الأرض بدقة تتخوف بكل المقاييس على دقة أى حاسب آلي من صنع البشر ، ذلك المسمى « كمبيوتر » . إن هناك « كمبيوتر » إلهياً يهتدي الإنسان من أن يضل أو يضل ، فالسما تعادل للإنسان سلوكه إن ذهب بعيداً عن الصراط المستقيم . ولا يقولن إنسان : إنما أنا أتبع ما كان عليه آبائي . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى
الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا نَأْوِلُو
كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾

بل على الإنسان إن يلتفت إلى أن أول تغيير لمنهج الله كان من أحد الأبناء الذين أصابهم الغفلة . وقول الإنسان : إنما أتبع ما كان عليه آبائي ، هو قضية متقوضة ، لأن الذي غير أول تغيير لم يقل : (حسبتنا ما وجدنا عليه آبائنا) لأنه لم يقلد أباً له ، وأيضاً فمن المحتمل أن الآباء لم يعقلوا ما غيروا من منهج الله ولم يهتدوا إلى الحق .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :